الفصل السادس

تقدم الجنود المسيحيين

إلى الأمام يتقدم الجنود المسيحيون إلى الحرب.
مع صلب يسوع على رأسهم ويقودهم المسيح السيد الربان
ضد الأعداء وتشاهد رايته تتقدم إلى الأمام في المعركة.

سير بارنغ غاولد

ما أن تجمع جميع الصليبيين مع بعضهم في مخيم عسكري على الجانب الأسيوي من بحر الفوسفور، حتى كانوا متحمسين لبدء زحفهم الطويل شرقاً إلى الأرض المقدسة، وبنفس الدرجة، كان الأمبراطور ألكسيوس تواقاً لرؤيتهم يذهبون، وقد وعدهم بتزويدهم بأدلاء يعرفون الطريق عبر هضبة الأناضول الواسعة، ولكن كان ثمة شيء واحد فقط تعين عمله قبل انطلاقهم بأمان في زحفهم إلى القدس مسافة ألف ميل. لقد تعين عليهم الاستيلاء على نيقية المدينة المحصنة التي تبعد خمسين ميلاً عن القسطنطينية في خط مستقيم لأنها تقع عبر طريقهم الرئيسية التي تقع تحت سيطرة الأتراك السلاجقة وتقع المدينة على شواطئ بحيرة تدعى أسكانيا تحيط بها أسوار دفاعية هائلة، ونظراً إلى أن الأتراك اعتبروها عاصمتهم، فقد تعين أن يكون بها حامية قوية عسكرياً، ولم يكن بإمكان الصليبيين المرور بها بسهولة فهي قد شكلت قلعة خطيرة في حال تركها في مؤخرتهم.

وكان جيش الصليبيين أضخم قوة عسكرية تجمعت من شعوب غرب أوروبا منذ نهاية الامبراطورية الرومانية الغربية، وكانت تعد على الأغلب، مائة

ألف رجل وامرأة وتابعين من المعسكر أيضاً، ورغم أنها تفتقر إلى قائد عام، إلا أنها كانت في الواقع قوة رهيبة، وفي مغامرتهم الأولى ضد الأتراك كان الحظ إلى جانب الصليبيين، ذلك أن قلج أرسلان سلطان السلاجقة (وتعني كلمة أرسلان ـ الأسد) كان يقاتل بعيداً على الجبهة الشرقية بعض الأتراك الدانشمند وهم منافسون للأتراك السلاجقة من أجل السيطرة على دولة أرمينية ثانوية في ذلك الجزء من العالم، وكان تقسيم الأتراك في قبائل في حالة فوضوية كثيراً حيث كان هناك السلاجقة والدانشمند والخوارزمية والغزنوية والقفجاق والبشناق والقراخانية[1] وفيما بعد العثمانيون، وقد كانوا جميعاً في الأصل رعاة وبدو قدموا من آسيا الوسطى، وأصبحوا مسلمين، كما أسسوا امبراطوية كانوا يتخاصمون من أجلها تارة، وتارة أخرى يدافعون عنها كأحلاف، وفي زمن الحملة الصليبية الأولى كان السلاجقة مهيمنين بزعامة سلطانهم قلج أرسلان، وقد سمعوا عن قدوم حشود من المسيحيين الغربيين، ولكن كان بطرس الناسك ورعاعه قد أقنعوه، أي السلطان»، ألا خوف من هؤلاء الرعاع المسيحيين غير المنظمين، فلم يزعج نفسه ليسرع لمقابلتهم حيث كانت نيقية محصنة جيداً إلى درجة تستطيع أن تهتم بنفسها.

وكان غودفري أوف بليون أول من غادر المعسكر الرئيسي في البوسفور، وقاد رجاله ضد المدينة، وسرعان ما انضم إليه جيش بوهموند تحت قيادة مؤقتة من ابن أخته تانكرد نائباً عن خاله الذي نزل في ضيافة الامبراطور ألكسيوس في القسطنطينية، كما انضم إليهم بطرس الناسك مع القلة الناجية من النكبة التي سبق وقادهم إليها قبل أشهر، والتحق بهم أخيراً بعض المهندسين البيزنطيين لأداء النصح، ومساعدتهم إذا لزم الأمر في فرض الحصار على المدينة، ووصل الجميع عند أسوارها في 6 أيار، وكانوا مدرعين وأقوياء إلى حد كبير وبطول يمتد إلى مسافة أربعة أميال، ولم يحدث جديد حتى التحق بهم

(1) لا يحمل قبول هذا التقسيم علمياً أبداً.

ريموند أوف تولوز مع حشده الضخم من الصليبيين من لانغ دوك بعد عشرة أيام، وتبعه روبرت أوف تورماندي ثم ستيفن أوف بليوس في أوائل حزيران حتى أمكن حصار المكان بالكامل، وفي تلك الأثناء أرسل الأتراك رسلهم ـ أسر أحدهم ـ ليتم إخبار قلج أرسلان عن وصولهم، ولدفعهم ليسرع لمساعدتهم.

وكما حدث تماماً. كان في طريقه إليهم، وحالما وصل شن هجوماً على جيش ريموند الذي كان يدافع عن السور الجنوبي للمدينة، وحلت الوطأة العظمى من هجوم الأتراك على الجناح اليميني المسيحي الذي كان تحت أمرة أسقف لي بوي الذي كان رجاله ـ رغم أوامره المقدسة يكرهون على التمسك بمواقعهم حتى مجيء روبرت أون فلاندرز لمساعدتهم، واستمر القتال طوال اليوم بحيث كان العديد من القتلى بين الجانبين، ولكن السلطان في النهاية اضطر لأمر رجاله بالتراجع، وكانت دهشته البالغة أن القادمين الجدد برهنوا أنهم مختلفون عن رجال بطرس الناس وأنهم أكثر من كونهم نداً ورجلاً لرجل في مقابل الأتراك، ولا حاجة للقول، كان الصليبيون معجبين بنصرهم رغم جروح العديد منهم وإنهاك معظمهم، واحتفلوا بنصرهم بتقطيع رؤوس العديد من الأتراك الموتى ويقذفهم بالمنجنيق فوق أسوار المدينة داخل شوارعها[1]، بينما وضع آخرون على رؤوس الرماح عند مدخل المدينة على مشهد كامل من المدافعين المحزونين.

ورغم أنه كان نصراً عظيماً، غير أن المدينة لم تسقط في أيديهم، ولم يبد أنها ستكون كذلك، حيث لا زالت المؤن تصلها عن طريق الزوارق عبر بحيرة أسكانيا، وعندما حاول المهندسون البيزنطيون شق جدار المدينة أخفقوا، وأخيراً، لدى طلب النجدة من الامبراطور، أمر أسطولاً صغيراً من

(1) كذا، الحقد قديم، فحتى في هذ الأيام لا يخفي الكاتب سروره بتقطيع رؤوس القتلى من المسلمين ويرى أن ذلك كان مجرد احتفال بالنصر.

البحرية البيزنطية بمنع وصول المؤن إلى المكان عن طريق البحيرة، وقاد السفن الأدميرال بوتومايتز الذي كان لديه أيضاً توجيهات امبراطورية لفتح باب المفاوضات مع قائد الحامية التركية لتسليم المدينة، وأدرك القائد التركي أنه ليس لديه أمل بالنجدة من قلج أرسلان بعد هزيمته، كما رأى ألا جدوى في مقاومة طويلة وأعلم بوتومايتز أنه مستعد لتسليم المدينة إليه في مقابل سلامة أرواح رجاله، وكان هذا الاتفاق بين القائد التركي والأدميرال البيزنطي، ولعل قادة الحملة الصليبية أبعدوا عن إعلامهم عن تقدم المحادثات، ولم يعرف رجالهم شيئاً عما كان يجري هناك، لكنهم على النقيض كانوا يتطلعون إلى توجيه هجوم عام على المدينة، خطط له في 19 حزيران، وكان حماسهم يتعاظم مع اقتراب ذلك اليوم، ولذلك خلال ليلة 18 حزيران فتح الأتراك أحد الأبواب لرجال بوتوماتيز، وبذلك تبين الصليبيون لدى استيقاظهم في الفجر أنهم خينوا في فريستهم. وكانوا يأملون في نهب المدينة ولذلك فقد أصبحوا مغتاظين وغاضبين أكثر عندما شاهدوا الأسرى الأتراك يعاملون بالحسنى من قبل البيزنطيين الذين أذنوا لبعضهم أن يفتدوا حريتهم، أو يعودوا إلى عائلاتهم دون ضرورة دفع أي شيء مقابل هذا الامتياز، أما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا قد أجهزوا عليهم جميعهم على الفور باعتبارهم أعداء المسيح فقد بدا هذا الكرم غير المقدر، وغير القابل للتعليل مماثلاً للخيانة، وحتى إنه نسيب الكفر، ولم يستطيعوا على عكس البيزنطيين، إدراك قيمة الأسلوب الدبلوماسي لمثل تلك السياسة الناعمة.

ولما كانوا غاضبين لم يشك أحد من الصليبيين أن الاستيلاء على نيقية كان نصراً عظيماً، وتشجع الجميع بذلك، وكتب ستيفن أوف بليوس إلى زوجته أديلا في روح عالية «سنكون في القدس خلال فترة أسبوع»، وأضاف إلى ذلك ما برهن على كونه نظر في العواقب نظرة غير متفائلة قائلاً: «ما لم يعقنا شيء في انطاكية» ولم تعتم ظلال أنطاكية حالة التفاؤل عند الصليبيين عندما انطلقوا من نيقية بعد أسبوع من الاستيلاء عليها، رغم مشكلة الحفاظ

على مثل هذا الحشد الهائل من الناس والحيوانات وإبقائها على قيد الحياة، خلال رحلة رهيبة يعرفها جيداً الأدلاء البيزنطيون، وهي أن الأناضول لم تكن أرضاً مضيافة، فهي في الشتاء هضبة مترامية الأطراف إلى حد كبير، وتمتد بعيداً داخل آسيا، وهي مقفرة تماماً لا نبات فيها كصحراء غوبي أو سهوب روسيا الجنوبية تجتاحها الرياح الثلجية القادمة من سيبيريا، ويغطيها ركام الثلوج التي يمكن أن تصل إلى عمق خمسين قدماً في بعض الأماكن، أما في الصيف فتبدو بأراضيها الحشائشية المتناثرة، وسهولها البركانية الصخرية بمساحاتها الملحية العديمة الحياة، والجافة تصليها أشعة الشمس، وتضيع معالم أفاقها في وميض الحرارة العالية أو تختنق في العواصف الرملية، فترى رعاتها البدو في أوطانهم في هذا البلد يعيشون على قطعانهم، وهم يعملون أين يمكن أن يجدوا الماء، ولكن طعام جيش شامل بكل ما تحويه عرباته، بالإضافة إلى الحيوانات المخزونة فقد كانت مهمة مختلفة تماماً، وكذلك مسألة المياه، وكانت النساء كالرجال صلابة ومشاكسة، وكن مستعدات للسير على الأقدام مثل أي شخص آخر، ورغم أن القليلات ركبن الحمير، لكن الفرسان كانوا راكبين إنما عمد العديد منهم إلى السير على الطريق لتوفير مطاياهم التي قادها الساسة، وحملت ممتلكات الكثيرين مع المستودعات العسكرية للحملة فوق عربات بدائية تجرها الثيران أو فوق ظهور البغال، وخلال تلك الأثناء كان الجنود والنساء والفرسان والقسيسون والتابعون من المعسكر والحيوانات أيضاً، كانوا جميعاً ـ يحصلون على طعامهم وشرابهم بطريقة أو أخرى. وحيث لم يكن ثمة نظام تزويد بالمؤن، فقد تعين على الجميع أن يطعموا خلال عبورهم البلاد، لقد كانت المسألة خطيرة إلى درجة أنهم قبل تنقلهم بعيداً قرروا أن ينقسموا إلى مجموعتين: فسار النورمانديون والفرنسيون الشماليون مع ممثل البيزنطيين في المقدمة تحت قيادة بوهموند، وتبعهم الباقون تحت قيادة ريموند أوف لولوز بعد عشرة أيام.

وعندما رحل بوهموند ونورمانديه مسافة أربعين ميلاً، وصلوا إلى مدينة

تدعى دوريليوم، فخيموا قرب بعض ينابيع المياه، وأمضوا ليلة 29 حزيران 1097، وعند الفجر هاجمهم جيش قلج أرسلان الذي كان في انتظارهم، وتغلغل الفرسان الأتراك ذوي التسليح الخفيف بأسلحتهم الخفيفة من كل الجوانب، وأمطروا الصليبيين بالسهام، وفي الحال أرسل بوهموند خيالاً يخبر ريموند أنه وقع تحت هجوم الأتراك، ويحثه للاسراع إلى مساعدته، وبعد القيام بذلك تحول إلى مهمة تنظيم الدفاع، فجمع النساء وغير المقاتلين في وسط المعسكر إلى جانب الينابيع مع أوامر بلزوم تزويد المقاتلين بالماء خلال القتال، كما أمر الخيالة بالترجل، والبقاء في وضع دفاعي حتى تتمكن النجدة من الوصول، وكان الرجل الوحيد الذي خالفه هو الفارس الذي وبخه بلدوين لجلوسه فوق عرش الامبراطور ألكسيوس، وبرجاله الأربعين من تابعيه الخاصين هاجم الأتراك في حمى القتال الجوهري ليسقط ميتاً فور ذلك متأثراً بجروحه الكثيرة البالغة، ولحسن الحظ أطاع الجميع بوهموند من أجل أنفسهم ومن أجل القضية المسيحية، وتقهقرت الموجة الأولى من الأتراك إلى الوراء.

ومع مضي الوقت، ارتفعت الشمس الأناضولية عالياً في وسط سماء زرقاء صافية، بحيث أصبحت الحرارة غير محتملة من قبل المقاتلين المجهزين بالدروع، وبدأ المسيحيون يتساءلون فيما إذا سيبقى منهم أحياء تحت الوابل المتواصل من الأسهم التركية، ولكن نظراً لكون التقهقر غير ممكن، والاستسلام غير وارد في التفكير، ولشجاعتهم التي كانت أنبل فضائلهم توصلوا إلى حل، وهو الموت قتالاً، وقام بعضهم بذلك، ولكن بعد منتصف النهار ظهر بعض الفرسان في غمامة غبار إلى الشمال، وكانوا بسبب حركة السراب الحراري يبدون بشكل ضعيف مشوه على نحو غريب. وتداعى الهجوم التركي، وعرف السلطان أن القادمين الجدد ليسوا أتراكاً، فلم يكن لديه إحتياطي في المنطقة، ومع ذلك وحتى تلك اللحظة تخيل أنه كان يقاتل كل الجيش الصليبي وأنهم، أيضاً لا يمكن أن يتوقعوا إمدادات، ولكن عندما اقتربت غمامة الغبار الذهبي المموضة، وبدأ الضجيج المرعد لحوافز الخيل

على نحو ظاهر وأشد وقعاً من أصوات القتال، وأصبح بالامكان سماع طنين السهام، وصهيل الخيول، وصليل الفولاذ على الفولاذ، وصراخ رجال في غضب أو في نزع الموت ـ ورايات تولوز وراين لاند، وفيرمانديوس ـ أصبحت جميعها ترفرف فوق الصفوف المدرعة للفرسان الذين كانوا يقتربون، وتمكن فرسان منطقة بروفانس واللورين بهجوم مكثف من الاجهاز على الأتراك، وكانوا مجهدي، وانطلق النورمانديون الذين كانوا في المعركة طوال النهار، إلى وضع دفاعي وذلك في عرض مهيب من القتال الذي لا يقهر، فكان في الجناح الأيسر كل من بوهموند وروبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بليوس، أما في الوسط فريموند أوف تولوز وروبرت أوف فلاندرز على حين كان غودفري وبلدوين وهيو في الجناح الأيمن، وسارت زبدة الفروسية المحتشدة للعالم المسيحي الغربي في موكب الهجوم، أما الأتراك الذين واجهوا عدواً أكبر منهم بكثير وعلى نحو هائل فكانوا غير مستعدين على الاطلاق لمثل هذا الهجوم، فانقلبوا على أعقابهم، وعندما رأوا فجأة ما حدث وكان جيشاً آخر للصليبيين تحت قيادة أسقف منطقة لي بوي من غير ريب ـ شاقاً طريقه عبر خط تراجعهم فوق التلال خلفهم ـ أصبحوا في حالة فزع، وألفوا مدبرين، وتم بذلك نصر الصليبيين التام.

وانفتحت الأناضول أمامهم بعد استيلائهم على كثير من الغنائم من معسكر السلطان، بعد أن تغلبوا في المعركة، وأصبحت معنوياتهم مرتفعة أكثر مما كانت بعد سقوط نيقيه حتى بدا لهم أنه ليس ثمة شيء سيقف في طريقهم الذي نصرهم فيه الرب، ولكنه كان لا يزال طريقاً طويلاً وعسيراً، وزاده الأتراك المنهزمون صعوبة بتخريبهم وحرقهم الريف والمحاصيل وتلويثهم الآبار، وكان الطقس لا يزال حاراً إلى حد الألم، بحيث لم يمضي وقت كثير حتى بدأ العطش والجوع يأخذان مأخذهما منهم، وبدأت الخيول تموت أولاً، وأقتصر الفرسان على المسير على أقدامهم، في حين أن المواشي والماعز وحتى الكلاب أخذت تعاني من حمل أمتعتهم، وبدأ الناس يأكلون الحشائش

الجافة، والحبوب التي كانت تنمو على طرفي الطريق، ومع ذلك لم يكن ذلك يسد رمقهم، وفي حين كانت جبال طوروس على أحد جانبي طريقهم، كانت الصحراء الملحية في الجانب الآخر، ولم يكن ثمة نباتات تشاهد غير الشجيرات الشوكية التي مضغها الصليبيون على أمل الحصول على بعض الرطوبة، حتى سقط ريوند صريع المرض، وتعين حملة في محفه، ومع مضي الأيام ساءت حالته، وبدا كأنه سيموت، وأما غودفري أوف بوليون فقد كان مصاباً بجروح من دبّ حاول اصطياده، وأما بقية رجال الرتل والعامة فبدأوا يموتون من الحرمان، ولكن بأعداد قليلة، وكانت جثثهم تحمل فوق العربات لتدفن كل مساء في قبور جماعية، وكان قادتهم يقفون متحلقين، بينما كان يأخذ أسقف لي بوي وقسيسون آخرون الصليب، ويرتلون القداس على الموتى على ضوء خافت، ولقد كان عملاً محزناً، ولكنه لم يؤثر على الصليبيين على نحو عميق، فقد كان لديهم يقين أن أرواح الموتى قد انتقلت مباشرة إلى ربها، لأن البابا أوربان كان قد وقد كل من يموت في طريقه إلى القدس بالصفح والغفران عن ذنوبهم، وليس ثمة أحد يرغب في الحياة فضلاً عن هذا الموت، وقد شوهدوا في ضوء ذلك بأنهم كانوا محظوظين.

ولذا بقيت المعنويات عالية وعندما وصل الجيش إلى قونية ابتهج الجميع، وفر السكان الأتراك إلى التلال من خوفهم من الغزاة الصليبيين هاجرين المدينة، ونظراً إلى أنهم كانوا يأملون في العودة في يوم ما، فقد تركوها دون تخريب، وكان منظر حدائقها وجداولها وبساتينها أشبه بقبس من الجنة بالنسبة للصليبيين العطاشى والمرهقين الذين ساروا خلال مكان يشبه دخول بني اسرائيل إلى أرض الميعاد وإذا كانت المدينة لا تعطى عسلاً وحليباً، فلا بأس بأن تزودهم بالطعام والفواكه المتنوعة، ولذا استقر الجميع ليتمتعوا براحة لبضعة أيام، حتى ريموند الذي كان مريضاً جداً، وتليت عليه الطقوس الأخيرة من الكنيسة وعندما وضع عند باب الموتى، تنشط وبدأ بالتحسن، وكانت دهشة الجميع أن عاش الرحلة الطويلة، في حين مات آخرون.

وعند هرقلية على بعد ثمانية أميال شرقي قونية التقى الصليبيون مرة أخرى مع الأتراك الذين بدا أنهم يأملون في إخافتهم من عبور جبال طوروس باتجاه الساحل، وبالتالي يتركون أرض تركية غير مغزوة في بقية طريقهم إلى الأرض المقدسة، ولكن بوهموند لم يكن لديه أية نية في تحوله عن عهده الذي اختاره ورجاله الذين هزموا من أجله مرتين في آخر الأيام، ولذا قاد مباشرة الجيش كله في الهجوم، وتقهقر الأتراك الذين لم يرغبوا في ركوب مخاطرة صدام آخر مع جيوش الفروسية المسيحية الجرارة، متخلين عن كبدوكية الجنوبية للصليبيين، وتحدد نصرهم في تلك الليلة بعلامة مذنب توهج في دربه العجيب والرائع عبر السماء الشرقية، في تذكار استحسان الرب لأحداث ذلك اليوم.

وحتى ذلك الوقت كان الصليبيون موحدين تماماً غير أن نقاشاً حول الطريق إلى الأمام تبع معركة هرقلية، وكان أقصر طريق إلى سورية عبر جبال طوروس عن طريق ممر عرف باسم بوابة كيليكية، وكانت وعرة وشديدة الانحدار، وكان أغلبية الأمراء يعارضون اتباعها، لكن أما وقد اندحر الأتراك مرة أخرى أصبحت الطريق خلال قيصارية عاصمة منطقة كبدوكية ـ مفتوحة أمامهم، ومن هناك تستمر طريق جيدة عبر جبال طوروس الثانوية نزولاً إلى سهل سورية وفيما بعد أنطاكية، وكانت الأغلبية في جانب السفر عبر تلك الطريق، ولكن مجموعة صغيرة لم تقنع ولم توافق، وقررت السير في طريق مختلفة خاصة، وأعلن تانكرد ابن أخت بوهموند مع بعض النورمانديين من جنوب إيطاليا، وكذلك بلدوين أخو غودفري مع بعض اللوريين، وبعض رجال من برابانت نيتهم على التحرك جنوباً داخل كيليكيا على نحو مستقل عن الجيش الرئيسي، ونظراً لأنه تبين أن القرار كان نقطة تحول في شؤون المسيحيين في الشرق الأوسط، فلابد من وصف مجريات الأحداث التي أعقبت رحيلهم، قبل متابعة سرد قصة الجزء الرئيسي من جيش الصليبيين.